الآداب | مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات اللغوية والأدبية
(EISSN: 2708-5783) ISSN: 2707-5508

العدد التاسع 9 مارس 2021

# مظاهر تشيع دعبل بن علي الخزاعي من خلال تائيته

د. أحمد محمد علي الجربوع*

aaljarboa@jazanu.edu.sa

**ملخص:**

يأتي هذا البحث ليدرس قصيدة لشاعر من مشهوري شعراء العصر العباسي، وهو دعبل بن علي الخزاعي، صاحب التائية المشهورة في آل البيت، التي مطلعها "مدارس آيات خلت من تلاوة"؛ وليبين صدق تشيع الشاعر، الذي شكك في صدق تشيعه القدماء والمعاصرون، وذلك من خلال استجلاء ما لاح من مظاهر التشيع في هذه القصيدة، مثبتين له قدمًا راسخة في المذهب الشيعي في عصره، قدمته على كثير من شعراء الشيعة في زمانه، بإخلاصه لمذهبه، وبذل نفسه للإمام الثامن من أئمة الاثني عشرية علي بن موسى الرضا الذي أُنشدت هذه القصيدة بين يديه. وبالمنهج الوصفي التحليلي خضنا غمار هذا البحث نستنطق تائية دعبل، وقصيدته الكبرى؛ لنخلص إلى ما هو أبعد من صدق تشيعه، ألا وهو عمله في الدعوة للمذهب الاثني عشري، هذا ما أكدته بصدق خاتمة هذه القصيدة وأخباره المتداولة في كتب الأدب بعد إنعام النظر فيها، وتفسيرها بشكل منطقي وعقلاني مقبول.

**الكلمات المفتاحية:** التائية الكبرى، دعبل، الدعوة للمذهب، داعية العلويين.

* أستاذ الأدب والنقد المساعد - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة جازان – المملكة العربية السعودية.

الآداب مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات اللغوية والأدبية
(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

# Manifestations of Shiittization of Di'bil Bin Ali al-Khuzai in his Ta'iyyah Poem

**Dr. Ahmed Mohamed Ali Al-Jarbou** *

aaljarboa@jazanu.edu.sa

**Abstract:**

This research examines the poem of Di'bil Bin Ali al-Khuzai, one of the famous poets in the Abbasid era and the author of the well-known *ta'iyyah* "a poem rhyming in /t/", which begins with *Madarisu Ayatin Khalat min tilawatn* "Quran Schools with no Recitation". The main purpose of this study is to prove the poet's steadfast belief in Shiite doctrine as manifested in his loyalty to his doctrine and devoting himself to Ali bin Musa al-Ridha, the eighth Shia Imam of the twelve Shiite Imams, to whom the poem was recited. Using the descriptive analytical approach, the research proves not only the poet's devotion to Shiism, but also his calling for the Twelver Shiite doctrine which is truly confirmed in the last verses of this poem as well as in the available literature after being deeply and logically investigated.

**Keywords:** Great Ta'iyyah, Di'bil, Calling for a doctrine, Alawites preacher.

**مقدمة:**

تعودنا ونحن نقرأ شعرنا العربي، أن نعجب بقصيدة لهذا الشاعر أو ذاك، فتهش إليها أفئدتنا، وتفرح بها نفوسنا، لما أودعه بها منشئها من حسن الرصف، وجودة البناء، الذي يقربها من الكمال في أحيانٍ كثيرةٍ، لتصل معه القصيدة إلى رتبة عالية، ودرجة متقدمة، فتصبح بها غُرةً من غرر الشعر العربي، وعينًا من عيونه.

* Assistant Professor of Literature and Criticism, Faculty of Arts and Humanities, Jazan University, Saudi Arabia.

ومع هذا التفوق والتقدم لأي قصيدة، فإن ناظمها لا ينفك عن تضمينها الصور الرائعة، والأساليب البديعة، والعواطف الصادقة، بل حتى الأفكار والمعتقدات يتم توظيفها في الشعر؛ لتؤدي دورها في استكمال هذا البناء المسمى بالقصيدة.

وشعراء العرب من أصحاب المذاهب يدركون قيمة شعرهم بالنسبة لمذهبهم، فيوجهونه لخدمة عقيدتهم، وما يؤمنون به من تعاليم دينية، وقواعد شرعية يؤطرها مذهبهم. فالشعر وسيلة من وسائل تثبيت دعائم المذهب، والمنافحة عنه، ووسيلة دعاية إليه وحشد للأنصار، وتنبيه للغافلين بأحقية الاتباع لهذا المذهب أو ذاك.

وعلى مر العصور يستجلي القارئ عقيدة الشاعر من شعره، وما أودعه فيه من قرائن، ومظاهر تدل على ميله إلى مذهب معين؛ لذا نجد في تراجم بعضهم: وكان متشيعًا، أو كان على مذهب الخوارج، أو كان قدريًا، أو كان جبريًا ... إلخ من هذه الإشارات التي اهتدى إليها مؤلفو كتب التراجم من استقراء الشعر والنظر فيه.

وقد نطقت بعض القصائد بتشيع أصحابها، وأكدت عليه كما أكدته هذه التائية لقائلها. وها نحن ندرسها، لنبين مظاهر تشيع دعبل بن علي في هذه القصيدة بشكل خاص، لأنها من أروع قصائده، وأطولها في ديوانه، وأصدقها إظهارًا لعقيدته، وذلك يأتي بعد أن نتحدث عن التائية وقيمتها، وعن دعبلٍ وتشيعه.

### أ- قيمة التائية(*)

لهذه التائية قيمة فنية كبيرة، لا بين أفراد المذهب الشيعي وحسب، بل بين المسلمين كافة على اختلاف مذاهبهم وتعدد طوائفهم.

ولعل هذه التائية استمدت قيمتها من تناولها لآل البيت، وجعلهم موضوعًا لها، على الرغم من تعدد أفكارها، وموضوعاتها التي تندرج تحت مظلة آل البيت وحبهم.

ومن نفاسة هذه القصيدة وجمالها أن استنشدها خصوم العلويين في العصر العباسي، كالمأمون الذي هجاه دعبل فعفا عنه وكتب له أمانًا، وطالبه بالوفادة عليه، فلما دخل عليه طلب منه المأمون أن ينشده التائية، فأنشده إياها إلى آخرها والمأمون يبكي، حتى اخضلت لحيته[1].

ويشي بجمالها، وقيمتها ذلك التلازم بينها وبين قائلها، حتى أضحت العلامة الفارقة في شعره، على ضخامة ديوانه، وكثرة أشعاره، إذ لم نرَ من ترجم لدعبل في مصادر الأدب القديمة إلا وذكرها، إما لصحة نسبتها إليه، وإما لاشتهارها بين المتأدبين، وهذا أرجح، إذ لو لم تكن هذه التائية على درجة عالية من الحسن والجودة، ما ذكرها جمع من الرواة وأهل الأدب في كتبهم. ويؤكد هذا القول أن معظمهم كان لا بد من أن يصفها بصفات تثبت سماتها المستمدة من قيمتها الفنية.

فصاحب الأغاني عندما ترجم لدعبل، قدم الحديث عن هذه القصيدة على سائر شعره وأخباره، وذكرها بعد اسمه ونسبه مباشرة، وقال عنها: «وقصيدته:

**مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلاَوَةٍ**

من أحسن الشعر وفاخر المدائح المقولة في أهل البيت»[2].

وهذا ابن المعتز يترجم له في طبقاته، ويذكر له ما يستحسن ويستملح من البيتين والثلاثة وما زاد عن ذلك، حتى إذا وصل إلى ذكر هذه التائية قال عنها: «وهو صاحب القصيدة التائية في آل الرسول صلوات الله عليه وعليهم، وهي التي أولها:

**مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلاوَةٍ وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ**

وهي أشهر من الشمس، ولا حاجة بنا إلى تضمينها ولا تضمين شيءٍ منها»[3].

ويراها ياقوت الحموي من أحسن الشعر وأسنى المدائح[4].

كل هذه الاقتباسات القديمة تؤكد على شهرة هذه القصيدة، وجودتها شكلًا ومضمونًا. إلا أن قيمتها تظهر بوضوح عند الشيعة، لارتباطها بالإمام الثامن من أئمة الاثني عشرية علي بن موسى الرضا، الذي أنشدت القصيدة بين يديه، وأثاب صاحبها[5]، فاكتسبت القصيدة شيئًا من القداسة، أضفاه استماع الإمام لها، فتوجهت أنظار الشيعة إليها منذ عصر الرضا، حتى عصرنا الحاضر، إذ نجد من علماء الشيعة في العصر الحديث من يرى هذه التائية أشهر من قفا نبك[6] - على حد زعمه-.

ومذ قيلت هذه القصيدة والشيعة يزيدون فيها، حتى طالت طولًا مفرطًا في بعض المصادر، هذا الطول يوحي بما تعنيه هذه التائية لهم، وكأنهم يرون أن الزيادة فيها خدمة للمذهب، أو فرض كفاية يثاب فاعله، ولا يعاقب تاركه. وللمتأمل أن ينظر في إجماع أبي الفرج الأصفهاني، وابن المعتز، وياقوت الحموي، وغيرهم كثر على أن مطلعها «**مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلاَوَةٍ**» وهم أقرب عهدًا منا بها وبقائلها، ثم نجد المصادر الحديثة، ولا سيما الشيعية منها تقدم على مطلعها ما يزيد عن الثلاثين بيتًا[7]، ولا نقصد في قولنا هذا إلى الطعن فيهم، وإنما نؤكد على أن هذه التائية منذ قيلت وهي في تزايد مستمر، بل إن بعض أبياتها واضحٌ صنعه وإقحامُه فيها، كالبيت الذي يذكر فيه قبر طُوْس:

**وَقَبْرٌ بِطُوسٍ يَا لَهَا مِنْ مُصِيبَةٍ تَرَدَّدُ بَيْنَ الصَّدْرِ والحَجَباتِ**

وطُوسٌ هذه مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ، وبها قبر علي بن موسى الرضا، وبها أيضًا قبر هارون الرشيد[8]. فهل نقبل أن يكون هذا البيت من أصل القصيدة التائية التي نظمها دعبل؟ وهو الذي أنشدها الإمام الرضا، ولم ينشدها أحدًا قبله، حتى أنه ضن بإنشادها الخليفة المأمون نفسه، لو لم يأمر الإمام بذلك!

ومع تيقننا بعدم القدرة على تمييز صحيح أبيات هذه القصيدة من منحولها، إلا أن هذا البيت تحديدًا يكشف لنا ما اعترى هذه القصيدة من انتحال، ويؤكد على أن التزيد فيها دافعه المشاركة بهذا العمل الجيد البديع؛ تقربًا لآل البيت، وحبًا لهم.

وقد شكك ياقوت الحموي ببعض نسخ هذه القصيدة إذ يقول: «ونُسَخُ هذه القصيدة مختلفة، في بعضها زيادات يظن أنها مصنوعة ألحقها بها أناسٌ من الشيعة، وإنا موردون هنا ما صَحَّ منها»[9]. وما أورده منها بلغ خمسة وأربعين بيتًا فقط، في حين يورد الدكتور عبد الكريم الأشتر جامع ديوان دعبل روايتين لهذه القصيدة، في الأولى بلغت سبعة وخمسين بيتًا، وهي التي اعتمدناها في هذه الورقة، والثانية جاوزت المائة بيت بثمانية عشر بيتًا[10].

والقصد من كل هذا أن هذه الزيادات -رغم ضررها في الأدب- دليل على جودة هذه القصيدة، وكم من شاعرٍ من أصحاب المذاهب لم يُزد شعرُه كله شطرًا واحدًا، لعدم بلوغ شعره جودة شعر دعبل وتائيته بصفة خاصة.

ولا يغني ما تقدم من حديث عن إدراك قيمة هذه القصيدة فنيًا وجماليًا بقراءتها، وللقارئ البسيط أن يُسْلِم لبه لهذه القصيدة، وهو مأسور بسهولة ألفاظها، إذ لا تكاد تلمح لفظًا غريبًا إلا في القليل النادر، مأخوذًا بنغمها العالي وموسيقيتها الشديدة، التي أعلتها المفردات المتناسقة في الأبيات كلها، والأفكار المترابطة من المطلع وحتى الخاتمة، ويزاد على ذلك حسن تصوير الشاعر، وربطه الصورة بالتاريخ، وتاريخ الأئمة بالذات، ليكسب هذه التائية عاطفة مشبوبة يلفها الحزن والأسى على مصائر آل البيت المتقدمين عليه، والمعاصرين له، ولا شك أن هذه القصيدة اكتسبت جمالها من صدق عاطفتها.

**ب- تشيع دعبل**

لفت انتباهي رأي لأبي العلاء المعري في دعبل بن علي يقول فيه: «وما يلحقني الشك في أن "دعبل بن علي" لم يكن له دين، وكان يتظاهر بالتشيع وإنما غرضه التكسب، وكم أثبت نسبًا بِتنسُّب»[11]. فعجبت من قول المعري، وهو العالم بالشعراء، والناقد للشعر، كيف يصدر عنه مثل هذا الحكم دون تحقق وتثبت. وازداد عجبي عندما رأيت من أساتذة الأدب المعاصرين من تبنى رأي أبي العلاء، ووافقه في عدم صدق تشيع دعبل، إذ يقول: «وقد تشكك أبو العلاء في

تشيعه، فقال إنه لم يكن صادقًا فيه، وإنه إنما كان يريد التكسب به، ولعله محق في تشككه، لأن مثل دعبل المنطوي على كره الناس لا يمكن أن يخلص لآل البيت، إلا أن يكون وراء ذلك باعث يدفعه لأن يقول ما لا يعتقده، وكأن أموال قُم هي التي دفعته لما كان ينظم من أشعار شيعية، كما دفعته إلى هجاء الرشيد وغيره من الخلفاء»[12].

والحق أن مجرد الشك في صدق تشيع دعبل أمر لا يُقْبَل، ولا يَصِح، وظني أنه أصدق شاعر شيعي في عصره، إذ رسَّختْ صدق تشيعه عوامل عديدة، منها شعره وقبيلته وحياته الاجتماعية.

أما قبيلته فخزاعة، وخزاعة حليفة هاشم في الجاهلية، وعرفت بالتشيع لأهل البيت في الإسلام[13]، وجاهدت مع علي بن أبي طالب، وثارت لقتل الحسين وكونت جيش التوابين، بزعامة سليمان بن صرد الخزاعي للثأر من قتلته[14]. فعلى المستوى القبلي لا شك في صدق تشيعه؛ لانتمائه إلى قبيلة عرف عنها التشيع.

وعلى المستوى الاجتماعي، وما تظهره أخباره من دلائل أنه كوفي النشأة[15]، والكوفة منذ بويع علي بالخلافة، وهي معقل الشيعة، ومهد التشيع، ومنها انطلقت عدة فتن في العصر الأموي، أودت بالخلافة الأموية، وعجلت بزوالها.

وفي بغداد حاضرة العباسيين، أقام على هجائهم؛ إذ لم يسلم منه الرشيد[16]، ولا المأمون[17]، ولا المعتصم[18]، وغيرهم من بني العباس، حتى أبغضه بعضهم وهمَّ بقتله[19]، وكان بمقدور دعبل أن يحطب في حبال العباسيين، وينال من فضلهم، لو كان همه التكسب كما زعم أبو العلاء، وغيره من المعاصرين، لكن تشيعه الصادق، وإخلاصه لآل البيت، دفعه ليكون شاعر المعارضة الصريحة للحزب العباسي[20]، حيث لم يكتف بهجاء الخلفاء وأولادهم بل هجا الوزراء أيضًا[21]، وتميز عن غيره من شعراء الشيعة بعدم الرضوخ للعباسيين وأموالهم، كما فعل السيد الحميري، ومنصور النمري، اللذان استمالهما الطمع بأموال العباسيين فأصبحوا من شعرائهم، على ذيوع تشيعهم وشهرته[22].

إن ملامح صدق التشيع عند دعبل بادية للعيان، ولا أدل من شعره على صدق تشيعه، فعلى الرغم من ضخامة ديوانه وكثرة شعره، إلا أنه صرف جله في خدمة مذهبه، والتذكير بآل البيت، وما لقوا من العذاب على أيدي خصومهم من العباسيين والأمويين، وانبرى كذلك لهجاء خصومهم هجاء مُرًّا لم يفرق فيه بين أمير ووزير، فكلٌ نال نصيبه من هجاء دعبل، الذي وصفته بعض المصادر بخبث اللسان[23]، فشعره ينطق بتشيعه، ويصدّق عليه قولًا وفعلًا.

**ج- مظاهر التشيع في التائية**

يحار قارئ هذه القصيدة كيف ستعالج خيوط التشيع، ومظاهره فيها، وإن كانت كل كلمة تبدي هذه المظاهر، وتخرجها بشكل يظن القارئ أنه أمام دستور يحوي بنود التشيع، فلجأنا إلى تقسيم هذه المظاهر إلى عامة وخاصة. وقصدنا بالعامة ما يشترك فيها الناس جميعًا، وليست حكرًا على دعبل وغيره من شعراء الشيعة، لكن فضلهم فيها يكون بالاستزادة منها، وكثرة ترديدها.

وأما الخاصة فنعنى بها ما كان صميمًا في العقيدة الشيعية ولا يوجد عند غيرهم، وقد حوت هذه التائية من الصنفين ألوانًا شتى سنأتي على ذكرها.

**1- المظاهر العامة**

يستوي عموم المسلمين بالإقرار لآل البيت بالفضل؛ وذلك لقربهم، وصلة رحمهم مع رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم. ومعلوم أن الشيعة ينظرون إلى العلويين دون غيرهم من آل البيت على أنهم من أحفاد الرسول صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة، وابن عمه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فيرون فضلهم وحقهم بالخلافة دون غيرهم من آل البيت، كالعباسيين، الذين يراهم الشيعة مغتصبين ما ليس لهم بحق.

من هنا نظمت هذه القصيدة للإشادة بالعلويين، وبيان مكانتهم، وفضلهم، وحقهم بالخلافة، وهذه النظرة لا يكاد يختلف عليها أحد من المسلمين وأصحاب المذاهب، رغم تعددها، واختلافها الفكري والعقدي.

وفي تائية دعبل تأتي الأبيات، لترسخ فضل آل البيت ودينهم وسجاياهم الخُلقية، وكل ما يتمتعون به من خصال تفرض حبهم، فضلًا عن كونهم أحفاد رسولنا صلى الله عليه وسلم. يقول دعبل واصفًا حبه لهم:

مَلامَــكَ فِــي أَهْــلِ النَبِــيّ فَــإِنَّهمْ أَحِبَّــايَ مَــا عَاشُــوا وأَهْــلُ ثِقَــاتِي
تَخَــيَّرتُهم رُشْــدًا لأَمْــرِي فَــإِنَّهمْ عَلَــى كُــلِّ حَــالٍ خِــيْرَةُ الخِــيرَاتِ
نَبَــذْتُ إِلَــيْهِمْ بِــالمَوَدَّةِ جَاهِــدًا وَسَــلَّمتُ نَفْســي طَائِعًــا لِــوُلاَتِي
فَيَــا رَبِّ زِدْنِــي مِــنْ يَقِينِــي بَصِــيْرَةً وَزِدْ حُــبَّهُمْ يَــا رَبِّ فِــي حَسَــنَاتِي[24]

لقد بلغ دعبل في حبه كمالًا لا يوصف، أخرجه هذا الحب عن إدراكه، ورأى في آل البيت أهل ثقته، ورشاد أمره، وأهل مودته الذين أسلمهم نفسه؛ ليحصل من هذا الحب الجامح على حسنات تثقل ميزانه يوم الحساب. ويبدو تسليم دعبل وانقياده في هذه الأبيات لولاته، لأسباب دينية محضة فهم أهل النبي، وحبهم بهذه الطريقة أجر.

ويزيد دعبل بأن يُشْرِكَ في حبهم كل قاصٍ من رحمهم، ويهجر من أجل ذلك أسرته وبناته:

أُحِبُّ قَصِيَّ الرَّحْمِ مِنْ أَجْلِ حُبِّكُمْ وَأَهْجُــرُ فِــيْكُم أُسْــرَتِي وَبَنَــاتِي[25]

وفي الشطر الثاني آية من آيات هيام الشاعر بأحبابه من العلويين، حتى أنه هجر أسرته، وبناته، وهجران الأب لبناته، وهُنَّ ضعاف دليل تمكن الحب من نفس الشاعر.

ويمضي دعبل بعد بيان حبه إلى ذكر أوصافهم، فيسبغ عليهم من خصال الشرف والمروءة ما يعجز عنه غيرهم، ولا ينهض به إلا هم. يقول دعبل:

وَقَــدْ كَــانَ مِــنْهُمْ بالحِجَــازِ وأَهْلِهــا مَغَــاوِيرُ نَحَّــارونَ فــي السَّــنَواتِ
تَنْكَّــبُ لأواءُ السِّــنِيْنَ جِــوَارَهم فَــلا تَصْــطَلِيْهِمْ جَمْــرَةُ الجَمَــرَاتِ

حِمىً لم تُطِرْهُ المُبدِيَاتُ وأَوْجُهٌ تُضِيءُ مِنَ الإيْسَارِ في الظُّلَمَاتِ
إِذَا أَوْرَدُوا خَيلًا تَسَعَّرُ بِالقَنَا مَسَاعِرُ جَمْرِ المَوْتِ والغَمَراتِ[26]

تصف هذه الأبيات ما ظهر من سجايا كريمة، وخلال حميدة تمتع بها جل رجال العلويين في الحجاز، فهم النحارون في الأزمات والشدائد، وهم الشجعان الأشاوس، قادة الجيوش، وجمر الموت في الحروب، ولبأسهم الشديد لا يتعرضهم الناس، ومع هذا البأس تضيء وجوههم بالإيسار إلى الفقراء وذوي الحاجة.

ويقول دعبل مبينًا عن سماحتهم وعفوهم، وعدم تسلطهم وتجبرهم وإن كانوا أصحاب حق:

إِذَا وُتِروا مَدُّوا إِلى وَاتِريهِمُ أَكُفًّا عَنِ الأَوْتَارِ مُنْقَبِضَاتِ[27]

وقد أبكى هذا البيت علي بن موسى الرضى حتى أغمي عليه[28].

ولعل أهم ما اجتمع الناس فيه بشأن العلويين هو الحزن عليهم، وعلى ما آل إليه حالهم من تقتيل وسفك لدمائهم، وهذا ما يميز هذه التائية؛ فهي لوحة كبرى يكتنفها الحزن من مطلعها إلى ختامها، وهي ملحمة بكائية تصور في صدق كثيرًا من مثاليات الشيعة[29].

من هنا كثر رثاء آل البيت، وهذه التائية من جيد ما قيل في رثائهم[30]، وهي بحق تعكس مدى حب دعبل لهم، وصدقه في هذا الحب.

ويطلعنا دعبل على حزنه بضروب شتى من التعبير، تشي بلوعة الحب، والخسارة الفادحة بموت الأئمة، الذين ماتت بموتهم العبادة والتلاوة:

مَدَارسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِن تِلاَوَةٍ وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ[31]

ويقول أيضًا:

قِفَا نَسْأَلِ الدَّارَ الَّتي خَفَّ أَهْلُهَا مَتَى عَهْدُهَا بالصَّوْمِ وَالصَّلَواتِ؟[32]

فكل مظاهر الدين تتلاشى بموت آل الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويزداد الأسى في نفس دعبل، وهو يرى مصارعهم، ويمر على قبورهم الكثيرة في المواضع المختلفة:

قُبُورٌ بِكَوفَانٍ وَأُخْرَى بِطَيْبَةٍ وَأُخْرَى بِفَخٍّ نَالَهَا صَلَوَاتِي
وَقَبْرٌ بِأَرْضِ الجَوزَجَانِ مَحَلُّهُ وَقَبْرٌ بِبَاخَمْرَا لَدَى العَرِمَاتِ
وَقَبْرٌ بِبِغْدَادٍ لِنَفْسٍ زَكِيَّةٍ تَضَمَّنَهَا الرَّحْمَنُ فِي الغُرُفَاتِ[33]

إلى أن قال:

نُفُوسٌ لَدَى النَّهْرَيْنِ مِنْ أَرْضِ كَرْبَلا مُعَرَّسُهُم مِنْهَا بِشَطِّ فُرَاتِ
أَخَافُ بِأَنْ أَزْدَارَهُمْ وَيَشُوقُنِي مُعَرَّسُهُمْ بِالْجِزْعِ مِنْ نَخَلاتِ[34]

ويظهر اتكاء دعبل على استلهام التاريخ، إذ يعيدنا إلى كربلاء وما حدث فيها من سفك دماء كثير من العلويين، ولا ينسى دعبل أن يُعَرِّضَ بالمتسبب في مقتل الحسين ومن معه من آل البيت يوم كربلاء، حيث يقول:

فَآلُ رَسُولِ اللهِ نُحْفٌ جُسُومُهُمْ وَآلُ زِيَادٍ غُلَّظُ القَصَرَاتِ
بَنَاتُ زِيَادٍ فِي القُصُورِ مَصُونَةٌ وَآلُ رَسُولِ اللهِ فِي الفَلَوَاتِ[35]

فهذا التوظيف للتاريخ في هذه القصيدة، يدل على عدم انقطاع الشاعر عنهم، وعلى عيشه في تذكر دائم لآل البيت، وحسرة متصلة منذ سنين طويلة كما يقول دعبل:

أَلَمْ تَرَ أَنِّي مُذْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً أَرُوحُ وَأَغْدُو دَائِمَ الحَسَرَاتِ[36]

إن حب آل البيت، وذكر فضلهم، والحزن على مصابهم عامٌ عند أهل الإسلام جميعًا، لا يُقَصِّرُ فيه إلا جاحد أو كاره، وفي هذه الأمور يستوي دعبل وغيره، لكن ما يميز دعبل عن غيره هو

المظاهر الخاصة لتشيعه وهي أهم من سابقتها، وفيها يظهر دعبل المتشيع كما ينبغي أن يكون التشيع.

**2- المظاهر الخاصة**

ذكرنا أمر تشيع دعبل، ونفينا الشك فيه، ولعل شعره أصدق دليل على ذلك، أو هو اعتراف صريح منه بتشيعه. ويبدو ذلك جليًا واضحًا في هذه المظاهر الخاصة للتشيع في تائية دعبل.

ومما يميز هذه المظاهر الدالة على تشيعه، أنه لم يسلك فيها سبيل الغلاة من الشيعة، بل كان معتدلًا، دون تطرف، وكان يدين بمذهب الإمامية على ما يبدو[37]، ويدل على ذلك صلته بالإمام الثامن علي بن موسى الرضا، ويدل على ذلك أيضًا إيمانه وتصديقه بالرجعة، وهي من عقائد الشيعة، وعليها جمهرة الطوائف الشيعية[38]، فهم يعتقدون برجعة الأئمة، ولكل فرقة إمامهم الخاص، الذي سيخلصهم من الجور والظلم، وسيملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا. وعن هذا المعتقد يقول دعبل:

**فَلَولاَ الذي أَرْجُوهُ في اليَوْم أَوْغَدٍ تَقَطَّعَ قَلْبِي إِثْرَهُمْ حَسَراتِ**
**خَروجُ إمام لاَمَحالةَ خَارِجٌ يَقُومُ عَلَى اسم الله وَالبَرَكاتِ**
**يُمَيِّزُ فِيْنَا كُلَّ حَقٍ وَبَاطِلٍ وَيَجْزِي عَلَى النَّعْمَاءِ والنَّقَمَاتِ[39]**

فهو صابر رغم ما يقاسيه من حزن عليهم، حتى يظهر هذا الإمام ويخلصهم بعدله، ويجزي كلًا بعمله.

ويقول في موضع آخر من قصيدته:

**إِلَى الحَشْرِ حَتَّى يَبْعَثَ اللهُ قَائِمًا يُفَرِّجُ مِنْهَا الهَمَّ والكربَاتِ[40]**

فالقائم هو المهدي الذي سيفرج عنهم الهم والكربات، ويزيل الظلم من الأرض.

ومن عقائد الشيعة التي لاحت في هذه القصيدة التقية، وفيها يقول دعبل:

**وَأَكْتُمُ حُبّيكُمْ مَخَافَةَ كَاشِحٍ عِنْيد لأَهْلِ الحَقّ غَيْرِ مُوَاتِ**
**لَقَدْ خَفَتْ الأَيَّامُ حَوْلِي بِشَرّهَا وإنّي لأَرْجُو الأَمْنَ بَعْدَ وَفَاتِي**[41]

لا يُظْهِرُ دعبل حبه لآل البيت مخافة الكاشحين والكارهين لأهل الحق الذين هم آل البيت، ويبرر دعبل هذا الأمر بسطوة الشر على زمانه، حتى إنه لا يرجو الأمن إلا بعد وفاته. ومن عمله بهذه التقية مدحه لهارون الرشيد بداية حياته، ووفادته على المأمون وإنشاده التائية.

ولا ريب أن التقية والمهدي من عقائد الشيعة الراسخة، يؤمن فيها جل المنتمين لهذا المذهب، لكن أخبار دعبل، وتائيته تذهب بنا إلى أبعد من هاتين العقيدتين.

لم يكن دعبل من عوام الشيعة في عصره، بل كان ذا شأن رفيع، ويؤدي دورًا يخدم فيه المذهب ويزيد من قوته.

عندما نقرأ أخبار دعبل نقف عند خبرٍ ذَكَرَه كثير ممن ترجموا له، منهم صاحب معاهد التنصيص الذي يقول عن دعبل: «وكان سبب خروجه من الكوفة أنه كان يتشطر، ويصحب الشطار، فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعتمة، فجلسا على طريق رجل من الصيارفة، كان يروح كل ليلة بكيسه إلى منزله، فلما طلع مقبلًا عليهما وثبا عليه وجرحاه وأخذا ما في كيسه، فإذا هي ثلاث رمانات في خرقة ولم يكن كيسه معه ليلتئذ، ومات الرجل في مكانه، واستتر دعبل وصاحبه، وجَدَّ أولياء الرجل في طلبهما، وجَدَّ السلطان أيضًا في ذلك، فطال على دعبل الاستتار فاضطر إلى أن يهرب من الكوفة، فما دخلها حتى كَتَبَ إليه أهله أنه لم يبقَ من أولياء الرجل أحد»[42].

يفهم من هذا الخبر أن دعبلًا عاش شطرًا من حياته مطاردًا، يتورى عن الأنظار خشية القود وطلب أولياء الدم والسلطان إياه. ومن هذا الخبر بَسَطَ الرواة في أخبارهم ذكر أسفار دعبل وترحاله، وأنه كان يدور الدنيا كلها ويرجع[43].

ولعل بين كثرة ترحاله، وخوفه من القصاص رابط، فهو يتنقل بين الأمصار كي لا يدركه السلطان أو أولياء المقتول فيثأروا منه بالصيرفي الذي قتله.

والحق أن للفطن عقلًا يميز فيه بين الأخبار المصنوعة المفتعلة، وبين الأخبار الحقيقية التي تتماشى مع العقل. فكيف لنا أن نقبل ونصدق أن يعود دعبل إلى الكوفة، لأن أولياء الدم لم يبق منهم أحد، وأن القصاص قد سقط عنه بذلك، فأين السلطان وأعوانه من الذين يطبقون القانون؟ وهل كانت الدماء في ذلك الوقت رخيصة، لدرجة ألا يقتص من القاتل؟ هذا أمر لا يصدق، ولا يقبله العقل.

ولعلنا نربط بين خبر ترحال دعبل، وتواريه عن الأنظار، وبين خبر آخر ذكره أهل الأدب عن دعبل، ومؤداه: «وطال عمره -أي دعبل- فكان يقول: لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي، أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك»[44]. ويقصد دعبل بالخشبة خشبة الصلب التي يصلب عليها الثائرون وأعداء الدولة بعد قتلهم، وكان العباسيون يصلبون جثث أنصار العلويين، وقد فعلوا ذلك مع أنصار النفس الزكية الذي ثار على أبي جعفر المنصور[45]. فدعبل ينتظر الصلب والقتل، لا القتل فقط، الذي هو حده الشرعي على جريمة القتل المزعومة.

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال مهم: هل كان دعبل يشكل خطرًا على الدولة العباسية يوجب على خلفاء العباسيين صلبه بعد قتله؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد من الرجوع إلى ولادة دعبل، حيث ترجح كثير من المصادر أنه ولد في منتصف القرن الثاني الهجري، وهي الفترة نفسها التي ولد فيها الإمام الرضا، فعلاقة دعبل بهذا الإمام وطيدة وقديمة، وكلاهما ولد في العام ذاته كما تذكر بعض المصادر (148هـ) [46]. وقد تعاصرا مدة خمسين سنة، وهي المدة التي ذكر دعبل فيها أنه يحمل خشبته على كتفيه، وكان في هذه المدة من رجال الإمام الرضا، على حد تعبير بعض رجال الشيعة المعاصرين ممن ترجموا له[47].

هذا التقارب بين دعبل والإمام الرضا خلق نوعًا من التكاليف والأعمال التي يوجه بها الإمام الشاعر، وهو ما يثير حنق العباسيين عليه، ويجعله خطرًا على الدولة العباسية، ومصيره القتل والصلب، كما هو حال أنصار العلويين في تلك الآونة.

هذه المهام التي قام بها دعبل لإمامه ومذهبه، هي مهام دعوية تقرب الناس لمذهب الإمامية، وترد الحق لأهله من آل أبي طالب، وتبغض الناس في حكم العباسيين، وكل ذلك قام به دعبل دون تردد.

ولنا في تائية دعبل دليل دامغ على هذا، وهي تلك الأبيات التي ختم بها قصيدته، وهو ينشدها الإمام الرضا إذ يقول لإمامه:

أُحَاوِلَ نَقْلَ الشَّمْس مِنْ مُسْتَقرّهَا ... وَإِسْمَاعَ أَحْجَارٍ مِنَ الصَّلَدَاتِ
فَمِنْ عَارِفٍ لَمْ يَنْتَفِعْ وَمُعانِدٍ ... يِمَيْلُ مَعَ الأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ
قُصَارَايَ مِنْهُمْ أَنْ أَؤوبَ بغُصَّةٍ ... تَرَدُّدُ بَيْنَ الصَّدْرِواللَّهَوَاتِ
إذا قُلْتُ عُرْفًا أَنْكَرُوهُ بِمُنْكَرٍ ... وغَطَّوا عَلَى التَّحْقِيقِ بالشُّبهاتِ
كَأَنَّكَ بالأَضْلاعِ قَدْ ضَاقَ رُحْبُهَا ... لِمَا ضُمِّنَتْ مِنْ شِدَّةِ الزَّفَرَاتِ[48]

فهذا اعتراف صريح من الشاعر على دعوته للناس رغم إعراضهم عنه، لأن أسماعهم قد تحجرت، وزيفوا الحق بالباطل، وأنكروا الأعراف، وغطوا الحقائق بالشبهات. هذه الحقائق هي ما قدمها دعبل في بداية التائية من حب آل البيت وبيان فضلهم، وتفوقهم على قريش كلها أمويين وعباسيين، وحقهم بالخلافة.

ومع فشل دعوه لمذهبه يجود الشاعر بنفسه، ويضعها رهن مذهبه وإمامه، ويؤكد على جهاده من أجلهما حيث يقول:

فَإِنْ قَرَّبَ الرَّحْمَنُ مِنْ تِلْكَ مُدَّتِي ... وَأَخَّرَ مِنْ عُمْرِي لِيَومِ وَفَاتِي

شَفَيْتُ وَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِيَ غُصَّةً وَرَوَّيْتُ مِنْهُمْ مُنْصُلِي وَقَنَاتِي
عَسَى اللهُ أَنْ يَأْوِي لِذَا الخَلْقِ إِنَّهُ إِلى كُلِّ قَوْمٍ دَائِمُ اللَّحَظَاتِ[49]

وفي هذه الأبيات اعتذار واضح من الشاعر عن فشله في إقناع الناس بنفسه، ويسأل الله أن يؤخر في عمره كي يروي منصله من أعدائه وأعداء آل البيت.

لقد ختم دعبل قصيدته الكبرى خير ختام، وختامها هذا يفسر ما تقدمه من أبيات، فهو يفسر حزنه وبكاءه على العلويين، ويفسر حبه لهم وبغض أعدائهم، كما يفسر سر ترحاله وتنقله بأمر منطقي مقبول وجدنا شاهده في التائية نفسها.

وقد قدم لنا دعبل في تائيته أشارت لما كان يقوم به من أمور الدعوة منها قوله: (وأَهْجُرُ فِيْكُمْ أُسْرَتِي وَبَنَاتِي) ولا شك أن هجران أسرته وبناته لا يكون إلا لأمر أسمى يخدم فيه المذهب، وتُجْمَعُ فيه الأنصار؛ لاسترداد الحق المسلوب.

ومن الدلائل على قيامه بأمر الدعوة، كثرة هجائه لخلفاء العباسيين، حيث هجا الرشيد والمأمون والمعتصم، فهو يعلي في دعوته من العلويين ويحط من قدر العباسيين؛ ما جعله يتوارى عن أنظارهم وينتقل بين الأمصار يمدح العلويين ويدعو لهم، ويهجو العباسيين ويزري بهم.

وقد كان دعبل يستميل قلوب الناس إلى آل البيت بتذكيرهم بالصلة بينهم وبين رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وهي الحجة الدامغة لإثبات حقهم بالخلافة ولفرض حبهم والحزن على ما أصابهم. وقد كرر دعبل هذا الأمر أكثر من مرة في تائيته. واستمع إليه وهو يقول:

هُم أَهَلُ مِيْرَاثِ النَّبِيِّ إِذَا اعْتَزوا وَهُمْ خَيْرُ قَادَاتٍ وَخَيْرُ حُمَاةِ[50]

ويقول في موضع آخر:

وَإِنْ فَخَروا يَوْمًا أَتَوا بِمُحَمَّدٍ وَجِبْرِيلَ والفُرْقَانِ ذِي السُّوَراتِ[51]

ويقول:

وَكَيْـفَ يُحِبـونَ النَّـبِيَّ وَأَهْلَـهُ وَقَـدْ تَرَكُـوا أَحْشَـاءَهُم وَغِـرَاتِ[52]

فهذه استدلالات دعبل على وجوب حبهم والحزن عليهم، وبذل حقهم لهم، وهي أدلة كافية لكل ذي لب كي يقدمهم على غيرهم. وعلى هذه الأدلة كان اعتماد دعبل في دعوته للعلويين، لكنه لم يوفق في استمالة أفئدة الناس نحوهم، لغلبة العباسيين وشدة بشطهم.

وبهذا يصبح دعبل من دعاة العلويين في زمانه كما نظن، وتصبح دعوته للمذهب أهم مظاهر تشيعه التي أفصحت عنها هذه التائية، حيث إنها تتفوق على التقية والرجعة وإيمان الشاعر بهما، وتؤكد حبه وحزنه على ما آل إليه حالهم، والإخلاص فيهما تقربًا للطاهرين من آل المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، حتى استحق أن يلقب بشاعر آل محمد[53].

**الخاتمة:**

وبعد، فإنه لا يسعنا الإطالة في مقام يقتضي الإيجاز، وإن كانت هذه التائية، لتحتاج منا إلى طول نظر، لنفهم أبعادها السياسية والدينية والمذهبية، ويكفينا ما أشرنا إليه من مظاهر التشيع فيها، هذه المظاهر قد قادتنا إلى نتائج نلخص أبرزها فيما يلي:

1- تؤكد هذه القصيدة على تمكن العقيدة الشيعية من ناظمها، وترد قول المشككين في صدق تشيعه من القدماء والمعاصرين.

2- وظف دعبل معتقداته المذهبية في هذه التائية، وقد بدت من خلال ذكره الرجعة والتقية، وهي أساس المذهب الشيعي.

3- برز لنا دعبل في هذه القصيدة بثوب الداعية لمذهبه، والدعوة للمذهب مظهر من مظاهر الإيمان به.

4- يزاوج الشاعر بين العام والخاص في هذه القصيدة. فالعام كالحب والحزن، والخاص يتمثل في العقيدة الشيعية التي لم يفلت منها دعبل.

5- زاد من قيمة هذه القصيدة جماليًا خلوها من الغلو، إذ لم يعرف عن دعبل غلو كغلو غيره من شعراء الشيعة.

**الهوامش والإحالات:**

(*) اعتمدنا في دراستنا لهذه التائية على ما أثبته الدكتور: عبد الكريم الأشتر الذي صنع ديوان دعبل، ولم ننظر إلى غيرها من الروايات، لظننا أنها أدق الروايات، وأقربها إلى الصواب؛ إذ بلغت بعض رواياتها حدًا من الطول يوحي بالزيادات التي دخلت على النص الأصلي.

(1) ينظر: العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: 198/2.

(2) الأصفهاني، الأغاني 132/2.

(3) ابن المعتز، طبقات الشعراء: 267.

(4) ينظر: الحموي، معجم الأدباء: 1284/3.

(5) ينظر: العباسي، معاهد التنصيص: 198/2، 199.

(6) ينظر: حسن الأمين، أعيان الشيعة: 401/6.

(7) ينظر على سبيل المثال: محسن العاملي، دعبل الخزاعي.

(8) ينظر: الحموي، معجم البلدان: 49/4.

(9) الحموي، معجم الأدباء: 1285/3.

(10) ينظر: دعبل الخزاعي، ديوانه: 78 وما بعدها.

(11) أبو العلاء المعري، رسالة الغفران: 420.

(12) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول: 321.

(13) ينظر: العاملي، دعبل الخزاعي: 8.

(14) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك: 551/5 وما بعدها.

(15) ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 266.

(16) ينظر: المرزباني، أخبار شعراء الشيعة: 92.

(17) ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 267/2.

(18) ينظر: العباسي، معاهد التنصيص: 197/2.

(19) نفسه: 196/2.

(20) ينظر: عزالدين إسماعيل، في الشعر العباسي: 57.

(21) ينظر: العباسي، معاهد التنصيص: 2/ 190.

(22) ينظر: عزالدين إسماعيل، في الشعر العباسي: 53 وما بعدها.

(23) ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 266/2. العباسي، معاهد التنصيص: 2/ 190.

(24) الخزاعي، ديوانه: 84.

(25) نفسه: 85.

(26) نفسه: 83.

(27) نفسه: 86.

(28) ينظر: العباسي، معاهد التنصيص: 199/2.

(29) ينظر: أبو زيد، الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي: 145، 146.

(30) ينظر: الكيلاني، أثر التشيع في الأدب العربي: 91.

(31) الخزاعي، ديوانه: 78.

(32) نفسه: 79.

(33) نفسه: 80، 81.

(34) نفسه: 81، 82.

(35) نفسه: 86.

(36) نفسه: 85.

(37) ينظر: أبو زيد، الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي: 111.

(38) ينظر: حميدة، أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري: 104.

(39) الخزاعي، ديوانه: 87.

(40) نفسه: 81.

(41) نفسه: 85.

(42) ينظر: العباسي، معاهد التنصيص: 191/2.

(43) نفسه: 191/2.

(44) ابن خلكان، وفيات الأعيان: 34/2.

(45) ينظر: الليثي، جهاد الشيعة في العصر العباسي الأول: 145.

(46) ينظر: الأمين، أعيان الشيعة: 400/6، 12/2.

(47) نفسه: 401/6.

(48) الخزاعي، ديوانه: 88.

(49) نفسه: 87، 88.

(50) نفسه: 79.

(51) نفسه: 83.

(52) نفسه: 80.

(53) ينظر: التنوخي، الفرج بعد الشدة: 229/4.

## قائمة المصادر والمراجع:

1) أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، تحقيق وشرح: عائشة عبدالرحمن، دار المعارف، القاهرة، ط9، د.ت.

2) أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

3) حسن الأمين، أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت، 1983م.

4) الحسن بن علي التنوخي، الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، طبعة دار صادر، بيروت، 1978م.

5) دعبل بن علي الخزاعي، ديوانه، صنعة: عبد الكريم الأشتر، المجمع العلمي العربي، دمشق، ط2، 1983م.

6) سميرة مختار الليثي، جهاد الشيعة في العصر العباسي الأول، طبعة دار الجيل، بيروت، د.ت.

7) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط 8، د.ت.

8) عبدالحسيب طه حميدة، أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، طبعة السعادة، القاهرة، ط2، 1968م.

9) عبدالرحيم العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، 1947م.

10) عبدالله بن المعتز، طبقات الشعراء، تح: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ط3، د.ت.

11) عزالدين إسماعيل، في الشعر العباسي الرؤية والفن، طبعة المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 1994م.

12) علي إبراهيم أبو زيد، الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي، طبعة دار المعارف، ط2، 1983م.

13) علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، شرحه وكتب حواشيه: الأستاذ عبد أ. علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2002م.

14) محسن الأمين العاملي، أعيان الشيعة، طبعة دار التعارف، بيروت، 1983م

15) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2، د.ت.

16) محمد بن عمران المرزباني، أخبار شعراء الشيعة، تلخيص: السيد محمد الأمين العاملي، تحقيق وتعليق: محمد هادي الأميني، طبعة المكتبة الحيدرية، النجف، ط1، 1968م.

17) محمد سيد الكيلاني، أثر التشيع في الأدب العربي، طبعة دار العرب، القاهرة، ط2، 1995م.

18) ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م.

19) ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.